

ليبيا

احمد الفقيه

حرب الكبرياء

كان الصباح ذلك اليوم صباحا عاديا بكل المقاييس لا يعد بشيء جديد على الاطلاق !

وكان الشيخ قد طوى الحلم في قلبه ومضى في طريقه لا يكلم احدا ..

لعله لم ينظر اليوم حتى الى التقويم ليعرف ان ذلك هو يوم السادس من اكتوبر ولعله لم يكن يخطر على باله ايضا ان عمر الهزيمة بلغ اليوم الفين وثلاثمائة وعشرة ايام بالتمام والكمال فلا شك انه قد توقف عن احصاء ايام الهزيمة منذ ان مرت الالف يوم الاولى دون ان يحدث شيء ، لقد فقد بعدها الامل في يوم نصر قريب ، اسلم امره الى الله واتجه اليه يطلب حسن الختام وترك الامر لاجيال تأتي من بعده .

الغان وثلاثمائة وعشرة ايام ولعل الافضل ان نحسبها ساعة بساعة او دقيقة بدقيقة ، فقد كان وقع الحياة في زمن الهزيمة بطيئا بطئا قاتلا ، كل دقيقة لها عذاب ، ان شيئا في نفوسنا كان على طول المدى يئن ويتوجع كان قدما خرافية تسحقه بلا هوادة ، وطالت ايام الانسحاق والهزيمة وامتدت حتى اوصلتنا الى مرحلة كنا خلالها قد فقدنا كسل عافية نفسية وعقلية وتحول كل شيء في حياتنا ونفوسنا الى هلوسة ومرضى وحى انعكست في ادابنا وفنوننا ، فاذا باشهر اغنياتنا هي (السح ، الدح ، امبو) واشهر ملاحمنا المسرحية هي (نكاشة عماشة) واشهر كتابنا واوسعهم نفوذا وانتشارا هم كتاب الدروشه وتحضير الارواح ، واعظم اشرفتنا السينمائية هو (خلي بالك من زوزو) . وتوقفت منابع الفن الجميل وانتهى الابداع والابتكار وانتشرت موجة من ابداء الذات وقهرها وجلدها بالسياط وتمزقها بالاطافر حتى الموت، وتخصص في ذلك شعراء كبار وسياسيون معتزلون صاروا يحترفون الكتابة ويسجلون ارقاما قياسية في التوزيع !

كان ذلك في السادس من اكتوبر عندما استيقظ شيخ صالح من نومه في الصباح الباكر وبغايا الرؤيا التي شاهدها ما زالت تملأ عينيه ، فقد رأى اعلاما زاهية الالوان تخفق عاليا بمحاذاة النجوم ورأى جيادا من اكرم وانبل واجمل انواع الخيول وهي تسد منافذ الدنيا وتملا المكان ضجيجا بصهيلها ووقع خطاها عندما تعدو ، وشاهد اعراسا تقام في السماء واستمع الى الفناء والزغاريد والموسيقى تتصاعد من كل مكان ! ملات البهجة قلب الشيخ وهو يستعيد في ذهنه ما شاهده البارحة في المنام .

لكن صحيفة الصباح تجاهلت تماما الحلم الذي رآه الشيخ تلك الليلة وخرجت صفحاتها خالية من اي اشارة او ذكر لذلك الحلم !

ولم يكن مذيع الاخبار في المذيع بافضل من الصحيفة فقد تلا على الناس نشرة اخبار الصباح دون ان ياتي ولو من بعيد على ذكر الرؤيا التي شاهدها الشيخ الصالح في المنام !

حتى الناس في الشارع وهم يبداون نهارهم الجديد منطلقين في طريقهم الى المدارس والعمال والمكاتب والحقول ومختلف ميادين العمل ومجالاته لم يكن يبدو ان احدا منهم يقيم اي اعتبار لما رآه الشيخ في الليلة السابقة !

كان ذلك يوم السبت السادس من اكتوبر عام الف وتسعمائة وثلاثة وسبعين ميلادية !

وتفرغت مدينة كاملة في العالم العربي هي (بيروت) لبيع
الهزيمة وتجفيفها وتعليقها وتعليقها في صناديق وزجاجات وسلال
واستعمال افخر انواع الورق في لها وتغليفها .. وبيعها لنسا
بالقطاعي !

الغان وثلاثمائة يوم وفوقها عشرة بالتمام والكمال ونحن نتجرع
(خروج) الهزيمة ، زينا لزجا ليس لمذاه المر حدود ، نحس به في
حلقنا وتتناوله مع اطباق الطعام على موائدنا ، ونشربه عند الصباح
في فتجان قهوتنا ، ونلنقي بطعمه مرا لزجا في احاديثنا وحكاياتنا
وسهراتنا واسمارنا . والنكسة صارت لافنة فوق جباهنا مكنوبة بكل
اللغات بدليل اننا نذهب احيانا الى الخارج ومهما كانت لغة القوم فهم
سرعان ما يكتشفون امرنا ، ويقراون حروف لافنة العار على جباهنا
ويقومون من فورهم يضعون لنا زيت (الخروج) في طعامنا وقهوتنا !

الغان وثلاثمائة وعشرة ايام منذ الخامس من حزيران ، جاءت بعده
سنة حزيران عجاج شعاء ، كشيبة ، قبيحة النظر محنية الظهر ،
تقوست انوفها كمناقير الغربان ، وفي كل مرة تأتي كان حجم الماساة
في قلوبنا بزداد اتساعا ، ورفعة الامل تزداد ضيقا واطلاما ، ولا ادري
كيف كنا خلال هذه السنوات العجاج نقيم حفلات الزواج وننجس
الاطفال وننجس الاعمال ونحن غرقى في بحيرة الرماد ، بل انني لا ادري
حتى الان كيف اننا خلالها ، جميعا عشنا ، وكيف اننا في يوم من
ايامها لم نكتشف انفسنا وقد سقطنا جميعا على ارضفة الشوارع ...
موتى !

فقد كان حجم الهزيمة بما لم تتعود عليه نفس جبلت على العزة
والكبرياء طوال تاريخها ، ان تهزمها شرذمة هي بلا شك سقطة شعوب
الارض كلها وتفرض عليها هزيمة ، قاسية ، مرعبة اوسع من صحراء
سيناء واقل من جبال الجولان !

الى ان جاءت ليلة السادس من اكتوبر وشاهد الشيخ الصالح
في المنام حلما ، وفي تمام الساعة الثانية ظهرا تحول حلم الشيخ
الصالح الى حقيقة فاجات العالم كله وعبرت يد الحلم مياه القناسة
فوق قارب من المطاط وهناك رفعت قبضتها لتفضي وبضربة واحدة على
كل الحزيرانات الحزينة في قلوبنا وتشعل نارا نضوي الكون كله ،
وتمزق الظلام كله ، وتعيد الروح الى البدن الذي دهسته العربات
الصيدة لقطار طوله الغان وثلاثمائة وعشرة ايام .

ليس مهما ما تحققه الحرب من نتائج بعد اليوم ..
فلقد ادت هذه الحرب نتيجتها منذ اول يوم !!

لقد كانت حربا عن اجل الكبرياء .. وليست مجرد حرب
لاسترداد الارض او ردع العدوان او الدفاع عن حق مفتصب .. فهل
كان عار الهزيمة يزول لو اخذنا حتى نصف الكرة الارضية .. سلميا !!

الاسبوع الثقافي

١٩ تشرين الاول

امطار تشرين .. !

وقف معلق الصحيفة الغربية مندهشا .
كانت النار تسقط من السماء ، وطلقات المدافع والصواريخ

كالشهب تملأ الافق ، وطائرات العدو تتساقط محترقة كاوراق الخريف ،
وصفارات الانذار تولول في الجو ، والبراكين التي استيقظت تملأ
الدنيا عودا ولها ، وكان الناس في دمشق والمنصورة يخرجون الى
الشوارع والشرفات واسطح المنازل فرحين مهلين يستمتعون بهرابة
القنابل والطائرات التي تسقط من السماء !!

وقف معلق الصحيفة المسكين ، مندهشا ومستغربا وحائرا لما
يرى .. فهذا مشهد لم يقرأ او يسمع او يشاهد له مثيلا .

وكتب الى صحيفته يعبر عن اندهاسه لهؤلاء الناس الذين لا
يهرولون الى الخابى مذعورين عندما تشتعل الارض والسماء باهيب
المعارك وانما يخرجون للافاة اللهب هبتهمجين فرحين .. وذكر قسي
تعليقه انه غير قادر على تفسير ما رآه عيناه !

من اين للمعلق المسكين ان يعرف ؟

من اين له ان يدرك ان ما ظنه لها وقنابل وطائرات مشتعلة ،
هو لم تكن كذلك في اعين المواطنين العرب ، فلم يكن ما ذهب الناس
الى ملاقاته هو اللهب والشظايا واجنحة الطائرات المحترقة .. وانما هو
موسم الامطار الذي انتظروه طويلا ، انه الفيث الذي يهبط من السماء
بحمل الخصب والخير والنماء !

فهذه هي امطار تشرين التي عشنا طويلا نحلم بها ونصلي لها
صلاة ((الاستسقاء)) ومنتظر قدمها منذ ربع قرن مضى !

ولذلك ، فانه عندما هزل المعلق المسكين الى المخبأ ، وجد المخبأ
فارغا لم يذهب اليه الا هو ، وطن في نفسه انه قد اخطا الطريق ،
فكيف لم يتزاحم الرجال والنساء والاطفال والشيوخ للاحتفاء به مثله،
وعندما تسلل الى كوة صغيرة يرى من خلالها ما يحدث بالخارج شاهدهم
جميعا يملأون الشوارع والشرفات واسطح البيوت والعمارات يصفقون
ويهتفون ويهللون لكل طائرة تسقط من طائرات العدو ، كان الذي يحدث
ليس حربا وانما هو عرس .. نعم ايها المحرر الذي أرسلوه بفضي
اخبار الحرب .. فرأى قوما يعملون الحرب عرسا .. نعم ان هذا هو
العيد والعرس والمهرجان الذي انتظرناه فكان ان خرجنا نساء ورجالا
واطفالا نشارك في صنعه ، نهتف له ، نقف تحت شآبيب امطاره نغسل
بها ونغفي قائلين لها في نفس واحد .. وصوت واحد ..

اهطلي يا امطار معارك تشرين :

اهطلي .. اهطلي ..

اغسلي ادران العار التي علقت باردتي وثيابي !!

ازيلي الفار والانربة التي غطت رأسي ومنكبي وملامح وجهي ..

اكنسي بسبولك اكذاس الهزيمة التي تملأ الاحياء والشوارع

والبيوت في بلدي !!

اهطلي يا امطار معارك تشرين وطهري بيماء امطارك الضعف الذي

زرعه في قلبي ، واعيديني من جديد قويا ، شامخا ، منتصرا !

اهطلي .. اهطلي يا امطار تشرين ولا تتوقفي ابدا عن الهطول

فانت وحدك سوف تزرعين الخصب في احشاء هذه الارض التي كساد

يقتلها العقم ، وتروين جنود السنديان التي اماتها العطش ، انست

وحدهم سعيدين للارض خضرتها ، وللسواقي الفنية حناجرها ،

وللمصافير اجنحتها التي فقدتها !

الارض ، وهذا ما لا يعرفه محرر الصحيفة الغربية ، انه لا يعلم ان كل
قرية عربية تحتفظ باجهل احتفالاتها للمطر ..
وتصلي صلاتها لكي يهطل المطر ،
وتغني احلى اغانيها للمطر !
ولسوف ننتظر موسم الامطار القادم ..
فلا بد ان تولد فوق سماننا سحب حبلى بالطر ..
لا بد ان تهطل الامطار من جديد !
كذب كل ما قالوه لنا ..

كذب ان نحن انتظرنا من السحب الداكنة فوق ابراج لندن ،
او سحب ناطحات السحاب في امريكا ، او تلك التي تصنع الجليد في
سبيرييا .. ان تأتي لكي تمطر فوق ارضنا !!

لن تأتي السحب من بلاد الاخرين لتصنع اعياد المطر في بلادنا .
ولن تسافر الفيوم من سمانهم لتفرغ غيشتها فوق ارضنا !!
لا بد ان يولد السحاب من جديد في سماننا ..
لا بد ان تتصاعد الابخرة من اراضينا وتصنع لنا سحبنا لكسي
تعود للارض من جديد امطار تزرع الخير والامل والسلام !!

ومنذ ان توقفت امطار المعارك في تشرين .. والمواطن العربي في
بلادنا يجلس الى بيته يلصق اذنه بالمذباع يتسقط اخبار النشرات
الجوية ، لعلهم يوما يقولون :

« سماء مليدة بالفيوم .. تنذر بهطول امطار شديدة » .

لكي يخرج بعد ذلك الى الشارع من جديد ، ويعود الى الفناء ،
وينتظر بمياه الامطار ..

الاسبوع الثقافي
٢ نوفمبر

فلن تنبت فوق ارضنا الاعشاب والسنابل والزهور الابك !
ولن تولد في اشجارنا الثمار الابك !

ولن تغني الجداول وتنبور السواقي وتبني الطيور اعشابها وتهب
على وجوهنا النسيمات المحملة بمطر الارض وعبر اشجارها الا بفيثك !!
امطري يا معارك تشرين .. امطري !
فقد جفت المياه في انهارنا منذ الهزيمة الاولى ..

وامحلت من يومها ينابيع الماء ، وافقرت مخازن الغلال .. وماتت
حبات البذار تحت الارض وانتشر فوق ارضنا القحط والجفاف والعطش
وصار وجه الارض كالبحر كالمصوان ، واصاب حياتنا غم السنوات
العجاف وهاجرت عصافيرنا واقسمت الا تعود الا يوم ان يأتي المطر ..

وها انت تجيئين الان ..

اهطلي اذا ولا تتوقفي عن الهطول ..

افرغي من احشاء غيومك وسحابك كل ما اختزنته من ماء خلال
ربع قرن من الزمان ، ارعدي وابريقي وافتحي قرب الماء واغمري الدنيا
لهبا وسيلا وغديرا وطائرات محترقة !

هكذا خرج الناس يفنون للمعركة في حين هروا محرر الصحيفة
الغربية الى المخبا يكتب بيد مرتعشة مقالا عن هؤلاء القوم الذين يجعلون
من الحرب عرسا !!

ثم فجأة توقف المطر ..

رغم التشديد الذي خرجنا جميعا نقتيه توقفت امطار المعارك عن
الهطول !

حتى انت يا تشرين !

يا من عهدناه دائما شهر الغيث والخصب والرياح وهطول الامطار!
ولكن لا بهم .. فالشوق للمطر ولد فينا منذ ان وجدت هذه

دار الآداب تقدم

الشاعرة العربية الكبيرة

فَدْوَى طُوقَان

في ديوانها الجديد

على قمة الدنبا وحيداً

٢٥٠ قرشا لبنانيا

صدر حديثاً